

فصول مختصة من الفلسفة الألمانية

٨- تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأستاذ خليل هندأوى

آثرنا ترجمة بعض مقاطع لشوبنهاور ونبشّه ،
لأن أسلوبهما الفلسفي تغلب عليه الصيغة الأدبية
والشعرية في كثير من خطرانيهما ونظرانيهما
(خ ٥٠)

صفحة من آثار شوبنهاور

« كيف تنعكس صورة العالم الخارجي في عقولنا »

مقطوعة صغيرة وضعها الفيلسوف على لسان جنى يمدد لنا
الثام عن سر الأشياء

أماي شيطان ، شيطان تقيلان منتظان ، ما أجمل النظر اليهما ؛
أحدهما إناء من حجر ثمين يُحلى بمرولين من ذهب ، والآخر
جسد تام الخلق والفاصل ، هو جسد إنسان ، فيمد أن تأملت
ظاهرهما كثيراً استأذنت من الجنى أن يسمح لي بتأمل باطنهما ،
فأذن لي فدخلت في الإناء ، فلا أدري أية ميول قائمة تمشي في
أجزائه تحت اسم الالتحام والالتام

أما الشيء الثاني ويا للغرابية ؛ أنى لي أن أحدث بما رأيت ،
فأساطير الجنى يمسى كل ما فيها أحماً للحقيقة ، ففي ذروته العليا
ألفيت ما يُدعى « رأساً » مظهره الخارجي كمثل كل مظهر ، وهو
كغيره من الأشياء يسبح في الفضاء ثقيلاً . ماذا وجدت ؟
وجدت الكون نفسه مع سعة الفضاء . وجدته يحتوي على كل
شيء ، فيه سعة الزمان ، وفيه يتحرك كل شيء ، وخلصني مع

أطلق به ما عشت فكرك رائداً
واكففت يمينك عن أمور ثقنتي
وأقم به حراً وأطلق ما به
واقنع بتبر من ذكاء إذ أجرى
عن كل نبر مالك أربابه
حسن الطبيعة خير ما متعته
وأجل أجر في الخلود لمؤمن
الإسكندرية

هذا التحول العجيب للأشياء في الزمان والفضاء ، إنني في
ذهاب وإياب

- ٢ -

مقطوعة من كتابه « العالم هو إرادة وتمثيل »

قد لا يدخل في دائرة الصدق قولنا : إن الحياة ظاهرها
وباطنها صباه مظلمة ، هكذا تجرى حياة أكثر الناس ، طائفة
بالقلق واليول النافرة ، تعشى في صدر الانسان حائرة مترجرجة ،
وصاحبها مستسلم للأحلام بين جذرائها الأربعة حتى يقضى نحبها ،
ما أشبه الناس بالساعات التي رُبِطت آلائها فحشت لاتعلم سبب
مشيتها وغاية دورتها ، وفي كل مرة يولد انسان تدور الساعة
لتعيد - كرة ثانية وثالثة - دورها القديم ، مرودة نفس الجملة
وذات المقطع بتبدل قليل لا يكاد يُحس

كل وجه بشري ، وكل حياة بشرية حلم فإن مستمد
من روح الطبيعة التي لانهاية لها ، ومن إرادة الحياة
العتيقة الثابتة . هي كالصورة أو كالتخاليف تمر سريعاً ، لاترسمها
الحياة على الشاطئ اللانهائي للزمان والفضاء ، ولكن تتركها
لحظة أو لحظتين تنعم بهذه الإقامة القصيرة ، ثم تحو رسوماها ،
وتذهب بألوانها ، مفسحة لغيرها مكانها ؛ هذا هو الجانب الذي
يبحث على التفكير والتأمل . . . يجب على ارادة الحياة القاسية
أن تكافئ كل صورة من هذه الصور الصافية وكل أمنية من
هذه الأمانى الذاتية ، جزاء ما تحمته من آلام عميقة وأوجاع
مضنية ، وذعر متكرر من الموت الذي تفر النفوس منه اليه

إن ما يجعل النساء أكثر صبراً من الرجال على الاعتناء
بشؤون أطفالنا ، هو أنهم يظللن أطفالاً ضيقات العقول ، ويلينين
- طيلة حياتهن - أطفالاً كباراً ، لا هن الى الأطفال ،
ولا هن الى الرجال

لنلاحظ فتاة غانية تلب وتفرح - سحابة نهارها - مع
طفل صغير ، ترقص أمامه وتغني معه ، ولتتمثل أى رجل شديد
القسوة على إرادته يستطيع أن يصنع صنعها ، ويقوم بدورها
في عصرنا هذا تقع عيوننا على كتاب يتخذون الكتابة
مهنة ، أما قبل هذا العصر فقد كان الكتاب من ذوى الالهام ،
ولم يكونوا تجاراً ، فلبثوا خالدين ، ولبثت مقالاتهم ومواعظهم
خالدة كالدهر

ادوارد هرتمان

وجد « شوپنهاور » في « هارتمان » تلميذاً أميناً لتعاليمه ، وإن اختلف مزاجهما بعض الاختلاف ، فوجه « شوپنهاور » جامد عابس ، نافر التقاطيع ، تكاد تبرز من وجهه كل علامم التشاؤم متكلمة منتقمة ، ووجه « هارتمان » هادي تطفو عليه من التشاؤم سحابة رقيقة لا غليظة ، فهو متشائم مقبول لا يضيق به الناس ، ولا يضيق بالناس ، ولعل تعريجه الكثير على نوادي النساء مما رقق حسه ، ولطف شعوره ، ومثل له الحياة العابسة تبسم له من وراء هذه الوجود الناعمة ، والثغور الباسمة مال في بدء نشأته إلى العلوم الطبيعية ، وبعد تقلب طويل دخل في مدرسة « السلاح » في برلين ، ثم وجد أن هذه الصناعة لم تكن لتلائم مزاجه ولا صحتة فهجرها ، وهو في إحدى رسالاته يقص علينا أن سبب تشاؤمه لا يرجع إلى ضعف في صحته أو اعتلال في مزاجه ، بل يرى أن روحه في الحقيقة روح تفاؤل ورضا ، ولكن زوجه كانت تطفو عليها سحابة من التشاؤم والكآبة الخرساء ، والعناد في الرأي الذي تذهب إليه

كان « هارتمان » في الثانية والعشرين من عمره حين أخذ يكتب كتابه « فلسفة اللاشعور » *la Philosophie de l'inconscient*. ولبث في تصنيفه خمس سنين . ما هو هذا اللاشعور ؟ إنه الإرادة عند شوپنهاور تظهر كأداة شاملة عامة ، أو هي ذات فكرة « هيجل » بعد خروجها من - مصنع شوپنهاور - مهمة منمضة لا تُدرك . ولا يرى القارىء في هذا الكتاب مذهباً جديداً لأنه تغير للمذاهب المتقدمة ، ولا بحثاً ناجحاً لأنه عصارة شباب متوقد روحاً وعاطفة . وإنما هو شعلة أضرمتها فتوة تنطوى على علم غزير ، فتهوى نفسك أن تتبع آثار المؤلف في ما يعطيك ويلهمك ، ولا سيما في تمدنه عن « اللاشعور » في مقامات العقل الانسان وحالاته النفسية ، وفي غمراة الحيوان ، في اللغبات ومسائل الدين ، وفي كل حنايا التاريخ وما احتواه ، حتى يأتيك بالصورة الأخيرة التي يرى فيها الانسانية وقد بلغت نهايتها متعبة من إرادتها ، ومن تفكيرها ، ومن حياتها ، وهي توافة مشتاقة إلى العدم ؛ حيث كانت ثم انتشلت منه بغير

إرادتها . وهذه صورة فيها شيء من السمو الشعري بشرط أن يتلقاها الناظر كحلم خالص قدفت به مخيلة خالية
وقد أحدث كتابه هذا دويماً بعيداً في العالم الفلسفي والعالم الأدبي ، لا لأنه زاد - في ألمانيا - أنصار الفكرة التشاؤمية ، بل لأن هارتمان وشوپنهاور كانا أول من صرفا الذهن الألماني إلى مواجهة المسائل الفكرية بالفكر ، وأعادوا وصل الحلقين اللتين قطع بينهما مذهب المثل الأعلى الذي سيطر على العقل الألماني طيلة عصر طويل

إن في كل ألماني مثقف نزعاً خاصة به تتمشى في ثنايا روحه ، تريد أن تتحرك وأن تنمو بذاتها ؛ ترى الفرنسي ينجح إلى الفلسفة لتساعده على تفهم الحياة ، وبعبارة أجلي لتعلمه كيف يعيش ! الألماني - على الأغلب يرى فلسفته حليماً ، ولكنه يمتدح أنه سيستيقظ من حلمه هذا ، وأنه إذا أراد أن يعمل ، فعليه أن يفتح عينيه وكل ألماني يتردد في حلمه أو يقظته - إلى المدينة الكاملة - التي تحدث عنها شوپنهاور ، المدينة المشيدة على ذرى النمام ، لأن الألماني واسع الحلم خصب الخيال ، وهناك يُفادر تصوفه الغريزي المهم ، ويؤوب من تلك المدينة إلى الحياة الحقيقية ، وهو أشد حماسة وأكثر تأهباً للمركة التي يشنها في سبيل الحياة

على أن هذا المذهب ، (مذهب التشاؤم) قد لقي خصوصاً الداء ممن قارعوه بالحجة بالحجة ، ونازلوه زللاً عنيفاً ؛ وحق للفلسفة كلها أن تجمع أحزابها وشيعها على محاربة « مبدأ خطر » إذا فشا هدم كل أمل في البشرية ، وقضى على كل جهادها الطويل . وقد انضوى « اللاديون » تحت لواء المارضة ، وكان أشهرهم « أوجين دوهرليك » الذي وصل إلى هذه الفكرة السامية : « بأن الحياة بمجموعها جميلة ، في أفراحها وفي آفراحها ، على أن تتناولها كما هي بمجرها وبمجرها ، لا تحاول تغيير سنتها ، ولا تبديل طبيعتها ، ولا نطلب إليها أن تمنحنا مالا تقدر على منحه ، لأنها سائرة إلى غايتها التي لا تبالي بناقينا ، وإن في تمردنا على نظمها شقاءنا ، وفي رضانا عن مذهبها نعيمنا ما